إن كانوا قد اختلطوا فى جاهليتهم فى حروبهم وحجهم وأسواقهم . فقد كان هذا الاختلاط فى الإسلام أقوى وأعظم أثراً . وشتان ما اجتماع عاجل لا يقوم إلا ليتخاذل . واجتماع قوى الصلة بعيد المدى .

وثانيهما : تدوين ما وثق الرواة بصحته من لغات القبائل المختلفة من غير أن يعينوا لغة كل قبيلة إلا فى القليل النادر . لأنهم نظروا إلى هذه اللغات بمرآة عامة هى اللغة العربية ، ممَّا جعل الناظر فى كتب اللغة يخرج منها بأسماء كثيرة لمسمى واحد . وباسم واحد لمسمَّيات كثيرة !

ونثبت هنا ما يقول ابن فارس ممَّا يومئ إلى ما ادعينا . قال :

« . . . . وكل هذه اللغات مسمَّاة منسوبة إلى أصحابها . لكن هذا موضع اختصار ، وهى . وإن كانت من لغة قوم دون قوم . إلا أنها لما انتشرت تعاورها كلّ » .

الألفاظ الدَّخيلَة

ويراد بها تلك الألفاظ التى داخلت اللغة العربية من طريق اختلاطها بالأمم الأعجمية ولغاتها . ومن طريق الحياة الجديدة علمية كانت أو اجتماعية — وذلك أن حياة التحضر والمدنية اضطرت العرب أن يأخذوا للغتهم من اللغات الأخرى . ما لم يكونوا يرون من أسباب العيش ووسائل الحياة المترفة الناعمة . وقد كان ذلك فى سائر مرافق الحياة ، من أدوات الزينة ، وأنواع المأكل والمشرب والملبس وآلات الغناء .

والعرب قد أخذوا الألفاظ الأعجمية ، حينًا مفرغة فى أوزانهم ، مصقولة بما يتفق مع لسانهم ويجرى على مناهج كلمهم كالجرة والكوز ، وحينًا آخر غير ملاحظين فيها ذلك كالجلّنار والياسمين والخولنجان .

قال الثعالبى فى فقه اللغة :

« فصل ، فى سياقة أسماء تفرد بها الفرس دون العرب فاضطرت العرب لتعريبها أو تركها كما هى ؛ من ذلك : الكوز ، الجرة ، الإبريق ، الطشت ، الخوان ، القصعة . إلخ ومن اللغة الرومية ، القنطار ، الترياق ، القولنج . . . إلخ » .

وكذلك أخذت مصطلحات العلوم أسماء أعجمية مثل ، السفسطة والفلسفة . . .

ومن الألفاظ الإدارية لفظ الديوان . فهو معرب عن الفارسية ، وليس فى وسعى أن أستقصى ذلك . ولا هو من غرضى . فحسبى نظر إلى ذلك يقنع بالإجمال .

وليس معنى أن الدخيل فى اللغة أثر من آثار القرآن . أن كل دخيل فيها إنما داخلها عن طريقه ، وإنما يراد أن الألفاظ الأعجمية كثرت واتسع ميدانها لشعور العرب بالحضارة فى الإسلام شعوراً أعظم من شعورهم فى الجاهلية ، ولأن القرآن لم يدع العربية ملكًا للعرب وحدهم . بل جعلها لغة المسلمين عامة . فرسًا وعربًا ومصريين وأنباطًا على السواء ، فاقتضت حياة التحضر ألفاظًا لمعان جديدة لم يمنع من أخذها مانع ، ولم تقف دون ذلك عصبية ؛ وإلا فقد تسرّبت ألفاظه إلى اللغة فى جاهليتها من أمم شتى

عن طريق التجارة والاختلاط ، وقد جاء ببعض ذلك القرآن الكريم ، كالمشكاة من اللغة الهندية ، وإستبرق وسجيل من اللغة الفارسية ، وطه من النبطية ، وقسطاس من الرومية ؛ وقد صقل هذه الكلمات وأمثالَها اللسانُ العربى ، وأخضعها لمناهج العربية بحيث لم يعد هناك فرق بينها وبين الألفاظ الأصيلة ؛ لأن أولئك الذين تناولوها بالصقل والتهذيب كانوا عرباً خلصت عربيتهم من شوائب العجمة فاستطاعوا أن ينقوها من كل ما يحول بينها وبين نسب فى الجزيرة صريح :

وأغلب الظن أن هذا هو ما يقصد إليه فريق من العلماء ، زعموا أن ليس فى القرآن شىء من غير اللغة العربية . — فقد نظروا إلى تلك الألفاظ التى يعدها الناس أعجميَّة فلم يجدوا فيها أثراً ولا عليها مسحة من عجمة ، فقالوا : ليس فى القرآن كلمة أعجمية ، يعنون أن تلك الكلمات بعد هذا الصقل ، عادت أشبه شىء بالألفاظ العربية الصريحة ؛ وإلا فما بالهم ينكرون المعرب فى القرآن وهم يعلمون أنه نزل بلغة العرب ، وأن العرب قد اختلطوا فعلا بغيرهم من الأمم ، وأن لكل أمة بيئة هى مستقى لغتها ، عنها تصدر وإليها ترد ، وذلك يستتبع حتماً أن يأخذ العرب ما لا تخرج بيئتهم من الثياب والطعوم وغير ذلك ثم يأخذوا اسم ذلك معه ، خاضعاً لقوانينهم ، وذلك أولى من أن يستأنفوا له وضعاً جديداً ؛ لأنه أقرب إلى الإفهام والفهم إذا حاولوا التفاهم مع الأمم التى عنها أخذوا ، وهو فى الوقت نفسه أقل كلفة ، وأخف مئونة .

اللَّحْنُ واللُّغَاتُ العَامِّيَّة

شديد على النفس أن تسلم ، ومحرج للقلم أن يدوّن ، أن حدوث اللحن فى اللغة العربية — أثر من آثار القرآن فيها ، وهو الذى آواها ، وأيدها ، ثم دفعها تمشى مدلّة طروبًا تتملقها الأمم وتنحنى بين يديها اللغات تكرمة وإجلالاً !

ولكن الواقع ذلك ، فالقرآن هو الذى مهّد للعرب حياة متحضرة لانت بها جلودهم ففسدت ملكاتهم لذلك ولاختلاطهم بالأمم المعرقة فى العجمة .

وقد بدت طلائع هذا اللحن فى صدر الإسلام حين ظهر فى المسلمين من الأمم الأعجمية من يرتضخ لكنة حبشية كبلال أو رومية كصهيب ، أو فارسية كسلمان ، فعند ذلك تأثر بعض العرب بما سمع من ذلك ، حتى لقد رووا أن رجلاً لحن بحضرة النبى عليه السلام فقال : أرشدوا أخاكم فقد ضلّ !

ثم تقدم الفتح الإسلامى وأظل الإسلام أممًا كثيرة وشعوبًا متعددة وكلها أقبل على اللغة يتعلمها وينطق بها ، ففشا اللحن وزاد ، واتسع سلطان الدولة واشتد امتزاج العرب بغيرهم فاتسعت دائرة اللحن وسال سيله وشمل العرب وغير العرب ، ولم تستطع العربية أن تبقى صحيحة

إلا على ألسنة القليل من الخاصة ، فأمَّا العامة فما كانت بهم حاجة إلى أن يرهقوا أنفسهم ، بل ما كانت فيهم قدرة على تحرى العربية فجروا على المستوى الذى يلائمهم وتجذبهم إليه ملكاتهم حتى أسلمهم ذلك إلى لغات عرفت بهم ونسبت إليهم ، وهى اللغات العامية .

وهذه اللغات فى الأمصار الإسلامية مزيج من اللغة العربية واللغات الأعجميَّة . وهى خاضعة للبيئات التى تكون فيها ؛ فالعنصر العربى فيها أظهر إذا كانت فى بيئة عربية ، والأعجمىّ أظهر إذا كانت فى بيئة أعجمية ؛ فعامية « المِصْرَيْن » قريبة من الفصحى . وعامية المدينة ومكة أقرب . وفى المغرب لغة تغلب عليها البربرية ؛ وفى الشام ومصر والسواد . لغات كثيرة فيها الألفاظ الأعجمية من فارسية ورومية وقبطية ونبطية ، وقد اختلفت لهجات هذه اللغات أيضًا فى كل الأمصار . ففى الشام لهجة وفى مصر لهجة وفى المغرب لهجة ، بل لقد اختلفت لهجات القطر الواحد ، بحيث إن فى مصر لهجات متخالفة !

وقد كتب المرحوم « حفنى بك ناصف » رسالة صغيرة فى مميزات لغة العرب . قال فيها إن من الممكن تعيين القبائل العربية التى نزلت مصر من طريق هذه اللهجات . . وإن كان بعض الباحثين يرى أن ذلك لا يسلم إلى الصواب ، لأن من أسباب اختلاف اللهجات علل الوراثة وطبيعة الإقليم .

هذا ، ولعل من التكرار أن نقول : إن خروج العرب من جزيرتهم

وانغماسهم فى الحضارة حتى لانت جلودهم ، واختلاطهم بالأمم الأعجمية حتى فسدت ملكاتهم ، بحيث نشأ عن ذلك ، وعن علاج تلك الأمم المعرقة فى العجمة ، للّغة العربية ، اللحنُ الذى انتهى بحدوث اللغات العاميّة . . .

نقول : لعل من التكرار ، القول بأن ذلك أثر من آثار القرآن الكريم حتى إنها لو بقيت فى جزيرتها لأمكن أن تظل بين قوم يحسنون أداءها ، ويحفظون إعرابها فلا ترى لحنًا يصِمُها ، ولا عامية تزاحمها .

مَعَانِى ٱللُّغَةِ

أثر البيئة فى المعانى ، المعانى فى الجاهلية ، المعانى فى الإسلام

أَثر البيئة فى المعانى

العلاقة وثيقة ، والصلة قوية ، بين المعانى التى تجول فى النفس ، والمظاهر التى تستجيب للحس — تلك قضية فرغ العلماء منها ، وسلموا بها ، وأداهم النظر فى آداب الأمم إليها .

فالأمة التى صقلتها الحضارة ، وتمشى فيها النعيم ، فاطمأنت إلى اللهو ، وانغمست فى الترف ، لها أدب هو ظل لهذه الحياة ، ومرآة تنعكس عليها صورها وألوانها ؛ وهو يخالف أدب أمة عاشت فى بيداء قاحلة ، وصحراء مجدبة . فى الأول معان كثيرة ودقيقة ، وفى الثانى معان محدودة وقريبة .

والأمة التى خضعت لحكومة منظمة حدت من حرياتها ؛ ووقفت من غرائزها بما فيها من قوانين سياسية واجتماعية وجنائية واقتصادية ، وبما لها من قوة تقوم على رعاية تلك القوانين وحمايتها ، وتجعلها نافذة الإرادة مسموعة الكلمة ؛ الأمة التى هذا شأنها ، غير تلك الأمة التى نشأت حرة طليقة تأخذ ما تشاء وتدع ما تريد — بل إن الطوائف فى

الأمة الواحدة يختلف بعضها فى ذلك عن بعض ، فلرجال الدين معان ، ولرجال السياسة معان ، وللمشتغلين بفن الزراعة معان ، يختلف كل منها عن الآخر بمقدار ما يختلف بعض هذه الأمور عن بعض ؛ واعتبر ذلك فى معانى الخوارج وأدبهم ، ومعانى الشيعة وأدبهم ؛ فإنك سترى على هذا مسحة من حزن عميق وألم باك ، فى حين أنك ترى فى ذلك وثوقًا بالنفس وصراحة فى المبدأ ، وليس ذلك إلا لأن الشيعة امتزجوا بالأمة ، يضعون نظم الدعوة لأئمتهم ويحكمون مناهجها فى الخفاء ، فإذا أخذتهم عين الخلفاء القائمين بالأمر ، اضطُهدوا ، ونكل بهم أقبح تنكيل ، وهم لا يحاولون أن يدفعوا عن أنفسهم ، أو يجاهروا بعدائهم ، حرصًا على دعوتهم — على حين أن الخوارج كانوا يعلنون عن عدائهم ويصارحون الناس بعقائدهم ، ويرمونهم بالكفر والمروق من الدين ، ثم يحاولون نصر دعوتهم بالقوة الواثقة والإيمان المستبسل . بل إن الفرد الواحد ، لتأخذ معانيه صورتين مختلفتين ، ولا يكون لذلك من سبب إلا ما للبيئة من أثر فى نفسه ، واعتبر ذلك فى على بن الجهم يمدح الخليفة المتوكل ، وهو حديث عهد بالبادية فيقول :

أنت كالكلب فى حفاظك للودّ وكالتّيس فى قــراع الخطوب

ثم لا يجد غضاضة فى ذكر الكلب والتيس إلى جانب أمير المؤمنين ولا يرى غضًّا من قدر الخلافة أن يقيسه بهما ، مع أنه هو الذى يقول :

عيون المها بين الرصافة والجسر جلبن الهوى من حيث أدرى ولا أدرى

وهو الذى قال تلك الغرر فى مدح المتوكل بعد أن لان جلده وحىّ حياة تخالف حياته الأولى فرق حسه وسما ذوقه !

ولعل أظهر ما يتجلى فيه تأثر المعانى بالبيئات ، التشبيه ، فهو فى العصر الجاهلى قبل أن يخرج العرب من جزيرتهم ، وينساحوا فى الأرض لا يكاد يعدو ما يقع عليه الحس من أنواع الحيوان والنبات القليل ؛ أمّا فى العصر العباسى فهو صورة للحياة المتحضرة ، ففيه الورد والأزهار والأعطار ، وفيه الصور المتخيلة فى عمق ودقة ، وفيه الاستعانة بمصطلحات العلوم التى نشأت ، والفنون التى جدّت . . .

وقد عرف الناس قديمًا وحديثًا ، ما بين الصور التى تنساب فى النفس ، وتلك التى تقع فى مجتلى الحس من صلة وارتباط ، حتى راحوا يذكرون لذلك ما ينصره ويجعل التسليم به أمراً حتماً ؛ كالذى رووا من أن أولى صناعات مختلفة اجتمعوا فى مجلس يتذاكرون البلاغة ، وكان فيهم الصائغ والصيرفىّ والحداد والنجّار ، فقال الصائغ :

خير الكلام ما أحميته بكير الفكر ، وسبكته بمشاعل النظر . وخلصته من خبث الإطناب ، فبرز بروز الإبريز فى معنى وجيز . وقال الصيرفى :

خير الكلام ما نقدته عين البصيرة ، وجلته يد الروية ، ووزنته بمعيار الفصاحة ، فلا نظر يزيفه ولا سماع يبهرجه .

وقال الحداد :

أحسن الكلام ما نصبت عليه منفخة القريحة ، وأشعلت عليه نار البصيرة . . . إلخ !

وهذه القصة وأمثالها ، وإن كان قد أريد بها نوع من التندر وأنها لم تقع على هذا الوجه الذى ذكرت ؛ فإنها تدل على أن قدامى الأدباء قد أدركوا تأثر المعانى وتلونها واصطباغها بما يبدو حولها ويحيط بها ، وأنهم عرضوا لذلك وتكلموا فيه قبل أن يعرف الوجود هؤلاء الذين يزعمون أنهم هم الذين فتحوا الباب إلى هذا النوع من البحث الأدبى !

وقد علل ابن الرومى الشاعر غرابة تشبيهات ابن المعتز وسُمُوَّها . حتى لا يصل إليها إلا من هو فى مثل منزلته وعزة مكانه ؛ وأصاب حين عزا ذلك إلى لون الحياة التى يحياها ابن المعتز ؛ فقال . وقد ذكر له قوله يصف الهلال :

انظر إليه كزورق من فضة قد أثقلته حمولة من عنبر

وقوله يصف روضة :

سقيًا لروضات لنـا من كل نور حاليه
كأن آزريـونها للشمس فيهـا كاليه
مـداهن من ذهـب فيهـا بقايا غاليـه

قال : هذا رجل يصف ماعون بيته ، لأنه ابن الخلفاء ، وأنا أى شىء أصف ؟ فأنت تراه لم يقف فى تعليله سبق ابن المعتز غيره من

الشعراء فى هذا النوع عند حدود البيئة العامة ، بل جاوز ذلك إلى البيئة المنزلية !

هذا ، ولو أنك قارنت بين طفلين نشأ أحدهما فى هدوء القرية وسكونها ، ونشأ الآخر فى صخب المدينة وضوضائها وتخالف مناظرها ، تتجدد مشاهده بتجدد الأيام ؛ لرأيت فى رأس ثانيهما من المعانى والأخيلة نوعًا أدق وأعمق ممَّا فى رأس الأول ؛ وليس ذلك إلا لما للبيئة من أثر جعل القروى بطىء الملاحظة سطحىّ الخيال ، وهيأ للمدنى نوعًا من العمق والدقة فى التفكير !

المَعَانِى فِى الْجَاهِلِيَّةِ

رأيت الحياة الجاهلية كيف كانت بعيدة عن التكلف ، خالية من التعقد فى جميع مظاهرها ،من مأكل وملبس ومشرب ومسكن ، فالمناظر التى تلوح لهم ، والمظاهر التى تحيط بهم ، أمور فطرية كالكواكب وبعض الحيوان وقليل من النبات ، أو مرافق حيوية كالجفنة والرحى ، أو وسائل حربية كالسهم والحسام . . .

ثم هى حياة حرة طليقة لا تخضع لقانون ولا تتقيد بنظام اللهم إلا قيد الدين الوثنى ، ولم يشمل ذلك نواحى حياتهم جميعًا ، فهو لم يكن بالدين ذى التعاليم الخاصة والحدود المرسومة ؛ وإلا نظام القبيلة وقد كان كثيراً ما يقف إلى جانب الغرائز ينصرها ويروى لذائذها وشهواتها . . .

وهى كذلك حياة خلت من العلم والفلسفة . فلم ترهق العقل ، ولم تكلفه الإمعان فى البحث والتنقيب والغوص إلى حقائق الأشياء ؛ فهى حياة طبيعية ، وكل شىء فيها طبيعى من صنع الله وحده ، فلا قصور فخمة ، ولا أبنية ضخمة ، ولا أشجار باسقة ، ولا مزارع واسعة ؛ يأكل العرب فيها ما طبخت الماشية . ويلبسون من أصوافها وأوبارها وأشعارها !

طبيعىّ إذن أن يكون ما يجيش فى صدورهم من معان وما يلابس أفكارهم من أخيلة ، صورةً لحياتهم ، فلا أثر فيه للتعقيد ، ولا ظل للتكلف ، حتى إن القصيد من قصائدهم أو الخطبة من خطبهم لا تستدعى كدّ ذهن ولا إرهاق فكر فى استخراج معانيها إلا بمقدار ما تعرف به الألفاظ العربية فيها — كيف وهى معان فطرية اقتضتها البداوة ودفعت إليها الفطرة الغضّة الخالية من تأنق الحاضرين وتكلفهم ، ثم الخيال فيها منتزعة صوره من المحسات ، مرسل على وجه قلّما يخرج عن الإمكان العقلى والعادى ، والتعقل مستنبط مما يلوح من مشاهد ، ويعرف من تجارب ، وينساب فى النفوس من وجدان ، . . كل ذلك فى غير غلو أو مبالغة أو إغراق .

فالعربى الجاهلىّ إذا اشتكى الوجد لا يزعم أنه أضحى كالخلال أو صار مثل الخيال ، وأنه لولا ما يدل عليه من حديثه ما عرف السامع مكانه ؛ وهو إذا مدح لا يقول :

لمست بكفى كفه أبتغى الغنى ولم أدر أن الجود من كفه يُعدى

فلا أنا منه ما أفاد ذوو الغنى أفدت ، وأعدانى فأتلفت ما عندى

وهو إذا رثى لا يقول : أظلمت الدنيا لموته . وانطبقت السماء على الأرض لفقده ! . . .

وعلى هذا سائر معانيهم فى خطبهم ووصاياهم وعتابهم وشكواهم ، وفخرهم ومدحهم وهجائهم ووصفهم ، لا يقصدون فيه إلا إلى ما يمثل حياتهم بما لها من خواص ومقومات .

وأمّا ما قد يطالع الناظر فى أدبهم مما يجنح إلى الدقة والعمق فإنما هو شىء جاء عفو الخاطر ، أو خضع للتنقيح والتهذيب كقول النابغة :

فإنك كالليل الذى هـو مدركى وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

على أنه من الممكن أن يكون ذلك أثراً لظل من حضارة ؛ فقد رأينا النابغة عاش عيشة تخالف ، إلى حد ما ، العيشة البدوية ، من طريق العطاء الكثير الذى كان يبذله له النعمان ، كما رأيناه يرحل كثيراً إلى الحيرة ، وذلك يستتبع أن يتأثر إلى حد ما ، بمشاهد الحضارة المحدودة هناك . . .

ومع ذلك . فالذوق البدوى فى هذا البيت بمكان ، على الرغم مما يقولون من أنه خرج عن دائرة المعانى الجاهلية بهذه الدقة وهذا العمق . فإن إضافة الليل إلى الممدوح — وهو ملك — على ما به من ظلمة وسواد ، وقياسه به على تلك الحال ، لا يسيغه الذوق الحضرى ، ولذلك أخذه سلمٌ

الخاسر فنفى عنه هذا المغمز . وذلك حيث يقول :

فأنت كالدهر ، مبثوثًا حبائله والدهر لا ملجأ منه ولا هرب
ولو ملكت عنان الريح أصرفها فى كل ناحية ، ما فاتك الطلب

ومثل ذلك ما جاء من قصائدهم خاضعًا للتسلسل المنطقى ، قد قوم بالثقاف . فبدا نقيا مهذبًا كشعر زهير ومن لفَّ لفه ؛ فإنما هو شىء قصد فيه أن يكون كذلك ولم يتحرَّ فيه مذهب المطبوعين ؛ ولذلك قال الأصمعى : « زهير والحطيئة وأمثالهما من الشعراء ، عبيد الشعر » ؛ وقد رووا أن قصائد زهير كانت تسمَّى « الحوليَّات » لطول ما ينتظر بها يرتب معانيها . ويوفق بينها . ولعل فى هذا ما يدفع ما قد يقال من أن فى قصائده خيالاً دقيقًا أحيانًا ومعانى عميقة وجودة ؛ تقوم دليلاً على أن الشاعر العربى لا يقل صفاء ذهن ودقة تفكير عن أخيه الحضرى ، وأن الشعر الجاهلى لا يقل روعة وخيالاً عن الشعر الحضرىّ . حتى إنه لا فرق بين شاعر فى البداوة وآخر فى الحضارة . ولو أراد الأول اللحاق بالثانى والجرى فى طريقه ، لأمكنه ذلك !

نقول لا يقال ذلك ، لأنا لم نقصد بما قلنا أن أذهان الجاهليين تقاصرت عن ذلك لأن خيالهم الفطرى غير مستعد له وعقلهم الطبيعىّ غير متهيئ للقيام به ، وإنما نقصد أن حياتهم قضت عليهم أن لا يذهبوا فى صوغ المعانى إلى إزعاج الفكر وحثه على استخراجها من مكان سحيق ؛ فلو كان قد أتيح لهم ما أتيح لغيرهم من حياة صاخبة ، ذات فنون

متعددة وحضارة ومدنية ، لكان قد استجاب لهم من المعانى والأخيلة ما لا يسمح ببقاء فارق بين أولئك وهؤلاء !

كذلك تأثرت معانيهم بنوع حياتهم تأثراً ظهر فى تلك الخطب التى تسرد فيها الحكم الدقيقة لمناسبة وغير مناسبة ؛ لأنهم كانوا يقصدون إلى التفاصح أكثر مما يقصدون إلى كشف خطة وشرح حقيقة ، وظهر أيضًا فى هذا الشعر الذى لا تقوم فيه القصيدة على وحدة ثابتة ، وينتقل فيها الشاعر من معنى إلى آخر من غير مراعاة توافق أو تناسب ، حتى لو حذفت من القصيدة ما حذفت لم يؤثر ذلك شيئًا .

وقد يكون سبب ذلك ما يرى بعض الباحثين من أن العقل العربى لا ينظر إلى الشىء نظرة فاحصة تأتى عليه جميعه ، وتحيط به من كل نواحيه ، ولكنه كالنحلة ، ينتقل من زهرة إلى زهرة ، ومن فَنَن إلى فنن ؛ يعجبه معنى فيأخذه ويلوح له آخر فينتقل إليه ، ومن ذلك ينتقل إلى ثالث وهكذا ؛ لذلك يجىء أدبهم « من كل بستان زهرة » ، ولذلك كانت كل معانيه الجزئية جميلة وشائقة ، وإن لم تندرج تحت معنى شامل ، وتخضع لقانون عام .

وظاهر أن هذه الخاصية لم تكن للعقل العربى لأنه عقل عربى ، بل لأن الحياة التى نشأ فيها صبغته هذه الصبغة وكسبته تلك الخاصيَّة .

ولئن قال هذا الباحث : إن تلك خاصية للعقل العربى فى طورى البداوة والحضارة ، واستدل على اطراد ذلك بوجوده واضحًا فى عصر

التدوين فى أمثال كتب الجاحظ ومن إليه؛ فقد يمكن أن يقال له إن ذلك كان فى عصر التدوين والحضارة بطريق التقليد ومتابعة القدامى، وقد رأينا كثيراً منهم يتابع القدماء فيبكى فى الشعر الأطلال ، مع أن عصر الحضارة لم يكن فيه شىء من ذلك ، ولم نرهم يقولون شعراً قصصيًّا ، ولا شعراً تمثيليًّا مع أن أسباب ذلك ودواعيه قد توافرت لهم ؛ وإذ قد رأيناهم يبكون الأطلال ولا أطلال ، ويدعون الشعر التمثيلى والقصصى مع توافر أسبابهما ودواعيهما ؛ علمنا أن ذلك لم يكن لأن العقل العربى فى العصر العباسى هو العقل العربى فى العصر الجاهلى ؛ بل لأن الشاعر العباسى أراد متابعة الشاعر الجاهلى حسب ؛ وإلا فإن الله لم يخلق أمة فى طبيعتها الفكر الفاحص والخيال العميق ، وأخرى فى طبيعتها الركود والخمود . فالعرب من حيث الفطرة كالفرس وكاليونان، وغاية ما هنالك من فروق أن أولئك تحضروا وكان لهم ملك ذو أنظمة وقوانين وحياة اجتماعية فيها علوم ومعارف لها آثار خاصة فى تكوين الأفراد تكوينًا يتفق مع طبيعة ذلك . وبقى العرب على حياة الفطرة توحى إلى نفوسهم كل ما كان فطريا خالصًا من شوائب التعمل والتكلف ، فلو وضع هؤلاء مكان أولئك لم يكن ثمة فرق . ولكان لهم ما لهم وعليهم ما عليهم من غير أن يكون هناك أثر للآرية أو السامية ، على ما يخف إليه ويدعو له أولئك الباحثون المتعصبون أو المقلدون .

وقد يكون مما يناسب هذه الرسالة أن أجمل هذا البحث حتى

لا تتشعب أمامى فيه الطرق فأخرج عمّا قد رسمته لنفسى من الإجمال والاختصار .

آداب أية أمة لا تخرج عن دائرة حياتها ، ويأبى ما ينساب فى أذهان أفرادها من معان وأخيلة إلا أن يكون صورة لهذه الحياة نفسها . وعلى هذا نستطيع أن نحد معانى اللغة الجاهلية بما يأتى :

أولا : كانت ضيقة محدودة لا لأن أفكار العرب ضئيلة ومخيلاتهم عليلة ، بل لأن القوة الفكرية التى تتصرف فى المحسّات فتنتزع منها الصور المعنوية إنما تنتزع ذلك مما يحيط بها من مشاهد طبيعية أو حيوية أو حربية ، ومما يحدث فيها من مخترعات علمية وما إلى ذلك مما يقل ويكثر ويأخذ صوراً متعددة وأشكالاً متنوعة تبعًا لتقدم الأمم ورقيها ، أو ضعفها **وتأخرها** ؛ والعرب أمة عاشت فى صحراء مقفرة فرأت أشياء محدودة ، وتأثرت بذلك .

ثانيًا : كانت المعانى سطحية قريبة التناول ؛ لأن حياتهم لم تكلفهم أن يروضوا أنفسهم ويأخذوها بالتعمق فى البحث لخلوها مما يدفع إلى ذلك من علم وسياسة ونظم خاصة ، تفرض عليهم أن يخضعوا لها خضوعًا عامًّا ، وتقف إلى جانب العقل أكثر مما تقف إلى جانب العاطفة .

ثالثًا : لم يكن يراعى فيها التناسب والتوافق ؛ لأن العقل العربى فى طور البداوة — وكل عقل فى طور البداوة فهو كذلك — لم يكن ينظر إلى الشىء نظرة شاملة ، وأيضًا ، فقد كانت اللغة فى معانيها خاضعة للبداهة

لا للروية ، ومن طبائع البدائه هذا الانتقال لأدنى مناسبة من معنى إلى آخر ، وأحياناً لغير مناسبة !

رابعاً : سلوكها سبيل الفطرة . فليس فيها غلو ولا إغراق وليس فيها تأنق ولا تكلف ، وليس فيها خيال بعيد ، أو معقد .

ٱلْمَعَانى فى ٱلْإِسْلَام

لعل أشمس البحوث ظهراً ، وأبعدها غوراً ، وأكثرها استعصاء ، هذا البحث ؛ فإنه يقتضى أن تجمع المعانى الجاهلية وتميز ، وتجمع كذلك المعانى الإسلامية وتميز ، ثم يقال : هذا معنى جاهلى ، وذاك معنى إسلامى . مع أنهم يقولون إن الشعر — وهو ديوان العرب — قد ضاع أكثره ، وأن النثر ضاع كثير منه وقد يكون فى هذا الذى ضاع معان دفنت معه وضاعت بضياعه . فيكون الحكم بجدتها نوعاً من الأحكام التى تفتقر إلى براهين تنصرها وأدلة تؤيدها .

هكذا يقول فريق من الناس يتحرجون — حين يتعرضون لأمر المعانى — أن يقولوا : هذا المعنى جديد ، ويرون أن مثل هذا القول جرأة لا تستند إلى دليل ولا تعول على برهان .

ولكن العلماء يقسمون المعانى إلى معان صريحة يشهد لها العقل بالصحة ويعطيها من نفسه أكبر النسبة ، وتتفق العقلاء على الأخذ بها والحكم بموجبها فى كل أمة وجيل ، ويوجد لها أصل فى كل لسان ولغة ،

وذلك كقول الشاعر :

وكل امرئ يولى الجميل محبَّب وكل مكان ينبت العز طيب

وقول الآخر :

ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه يهدَّم ، ومن لا يظلم الناس يظلم

وقوله :

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم

وكقول الله تعالى : « ادْفَعْ بالَّتِى هىَ أَحْسَنُ فإذا الذى بينَكَ وبينَهُ عداوةٌ كأنَّه ولىٌّ حميمٌ » .

وهذه المعانى ومثلها ، وهو كثير ، هى المعانى العقلية الخالصة وليس كل الناس سواء فى الوصول إليها ، والعثور عليها ، فمنها ما هو وليد العقل المجرب والبصيرة النافذة ، وإن كان كل الناس سواء فى الخضوع لها والإيمان بها . فليس أحد يستطيع أن يزعم أن العربى الذى وقف حياته على الغارة وكسب قوته بطعنة الرمح وضربة السيف ، يستطيع أن يأتى فى كلامه بمثل قوله تعالى : « ادفع بالتى هى أحسن السيئة . . الآية » ؛ لأن نوع حياته لا يملى عليه إلا القوة وما يتصل بها ؛ كما أن أحداً لا يستطيع أن يرى أن ذلك الذى نشأه الترف الناعم فى مأمَن من الغارات والمعارك ، يستطيع أن يوفق إلى مثل : لا يسلم الشرف الرفيع .. البيت.

وكذلك لا يستطيع إلا رجل عرك الدهر وجرَّب حوادثه ، أو لقن الحكمة أن يظفر بمثل قوله :

ووضع الندى فى موضع السيف بالعلا مضرّ، كوضع السيف فى موضع الندى

فهذه المعانى ، وإن كانت كلها مسلَّمة وصحيحة عند كل الناس ، وفى كل العصور ؛ إلا أنها لا تستجيب لكل أحد ؛ لأنها مرتبطة بألوان خاصة من الحياة لا تتوافر لكل أحد .

وهناك نوع تخييلىّ ، وهو ما لا يمكن أن يقال فيه : إن ما أثبته ثابت ، وما نفاه منفىّ ؛ وهذا النوع كثير ، وهو الخاص بالشعر وما جرى مجرى الشعر ، وليس له حد يقف عنده ، ولا غاية ينتهى إليها ؛ ومعظم شعر المحدثين صورة له ، وهم أكثر افتناناً فيه ، وأعظم قدرة عليه ؛ لأنه مرتبط برقى الفكر وتمكنه من القدرة على الحكم والتعليل ؛ حتى يصور الباطل فى صورة الحق ، ويلبس الحق ثوب الباطل ؛ فهذا البحترىّ ، يصور الشيب البغيض المكروه فى صورة الحبيب المودود فيقول :

الشيب كرهٌ . وكرهٌ أن يفارقنى أعجب بشىء على البغضاء مودود

ومثله فى الاحتجاج على فضيلة الشيب :

والصارم المصقول أحسن حالة يوم الوغى من صارم لم يصقل

ويعلل أبو تمام فقرَ الكريم بما لا يقبله العقل فيقول :

لا تنكرى عطل الكريم من الغنى فالسيل حرب للمكان العالى

وما أظن أن لهذا الباب غاية أحاول أن أصل إليها ، وإنما أردت بما ذكرت أن أقول إن المعانى منها ما هو فطرى ، ينساب إلى النفوس من غير

كبير عناء ؛ ومنها ما يتأبى على بعض الناس الذين نشأوا فى بيئات لا تقر مثل هذا المعنى ؛ ومنها ما هو وقف على التقدم الفكرى والرقى العقلى ؛ فمن السهل الميسور أن يقال هذا معنى جديد لم يقله جاهلى . وإن كان قد ضاع الكثير من الشعر والنثر فيستطاع الجزم بأن هذا الضائع لا يشمل هذا المعنى ولا يحويه لأنه لا يناسب البيئة الجاهلية ولا يوافق نوع الحياة فيها!

على أننى فى بحوثى هذه لا أحاول حصر المعانى ومقارنتها بعضها ببعض ليتميز بعضها عن بعض لأن تلك مهمة الباحث عن إعجاز القرآن . فهو الذى يناط به أن ينظر كيف اخترع القرآن معانى ؟ ثم كيف تخيَّر لها ألفاظًا ؟ ثم كيف جاءت هذه الألفاظ مقدرة على هذه المعانى دون نقص أو زيادة ؟

فأمَّا هذه الرسالة ، فحسبها أن تنظر إلى ذلك نظراً عامًّا هو أشبه شىء بالضوابط العامة والقوانين المجملة :

جاء القرآن الكريم بعقائد سامية ؛ ومبادئ عالية ؛ واعتبر بعض ما كان يستحسن العرب ، قبيحًا ، وأفهمهم الفضيلة نوعًا آخر غير ما كانوا يفهمون ؛ وجلى لهم الحياة فى صورة غير التى كانوا يعرفون ، فذم العصبية ؛ ومقت الظلم والبغى ، وعاب السرف والتبذير ، وكره التعاون على الإثم والعدوان ، وأمر بالعطف والرحمة ؛ ورغب فى كل ذلك بالجنة ونعيمها ، وأرهب بالنار وجحيمها ؛ وذكر البعث والحشر والنشر ، والصراط والميزان . والحور والولدان . وجعل مناط الفضل تقوى الله والتزام

حدود الإسلام ، لا شرف الأب وعزة القبيلة ؛ وجاءهم بشرائع يتحرونها ، وعبادات يؤدونها ، وقص عليهم من أخبار السالفين من كانوا أكثر منهم مالاً وولداً ، وأكبر قوة وعدداً ... وعلى الجملة جاءهم بجديد فى كل فروع الحياة من دينية وسياسية واجتماعية ؛ وكان من أساليبه فى الدعوة والإرشاد أن ضرب الأمثال الرائعة ، وصاغ التشبيهات البديعة ، والاستعارات الجميلة ، والكنايات اللطيفة ، فنظروا إليه نظرتهم إلى الشيء أعجزهم فى ألصق الأوصاف بهم ، واستأثر دونهم بالكمال فيه ، فاندفعوا إليه يكثرون ترديده ، ويحرصون على تفهم أسراره وتعقل معانيه ، ومضوا يزيدهم مرور الزمن به اقتناعاً وفيه حباً ، وله تقديساً وإجلالا .

ومما لا يحوم حوله شك أن ذلك يجعلهم يظفرون منه بمعان جديدة ، لأن بيئتهم لا تنتج مثلها ؛ ومسلَّمة ، لأنها صحيحة تنصرها الحجة ويؤيدها الدليل . وقد غمرت هذه المعانى الجديدة كل ما كان يصدر عن الخلفاء والولاة والقواد والفاتحين والخطباء ؛ بل لقد تناول الشعر من ذلك شيء ...

فهذا بجير بن زهير يقول :

إلى الله — لا العزّى ولا اللات — وحده ... فتنجو إذا كان النجاء وتسلم

لدى يوم . لا ينجو وليس بمفلت ... من النار إلا طاهر القلب مسلم

ويقول الحطيئة ، وهو من هو . فى بعده عن الإسلام :

ولست أرى السعادة جمع مال ... ولكن التقىّ هو السعيد

وتقوى الله خير الزاد ذخـــراً وعنـــد الله للأتقى مزيد

ويقول النابغة الجعدىّ :

أتيت رسول الله إذجاء بالهـــدى ويتلو كتابًا كالمجرة نـــيرًا
أقيم على التقوى وأرضى بفعلهـــا وكنت من النار المخوفة أحـــذرا

ويقول حسان ، وشعره صورة صادقة لذلك :

وإن امرأ يمسى ويصبح سالمًا من الناس إلا ما جنى ، لسعيد

ويقول عبد الله بن رواحة :

شهدت بأن وعد الله حق وأن النار مثوى الكافرينا
وأن العرشَ فوق الماء طاف وفوق العرش رب العالمينا

أفلست تلمح أثرًا للمعانى القرآنية فى هذا الشعر ، لم تكن الحياة الجاهلية لتستطيع أن تصل إليه بحيث يهرع إليه الخطباء والشعراء فيودعونه شعرهم ونثرهم ؟

وما أظن أن ثمة حاجة إلى الاستشهاد على ذلك بخطبة أو رسالة فيها معانٍ إسلامية ، فذلك من الكثرة والاستفاضة بحيث لا يحتاج إلى استشهاد .

قد يحدثنا التاريخ أن قريبًا من تلك المعانى ، رطبت به ألسنة العرب فى الجاهلية وسمَت إليه أفكارهم ، كالذى يروى عن قس بن ساعدة الإيادىّ فى سوق عكاظ فى خطبتِه المشهورة : « أيها الناس ، اسمعوا وعوا ... إلخ » ؛ ولكن ذلك — إن صح — كان مقصوراً على أفراد قلائل ،

وكان محصوراً فى دائرة ضيقة فلم يكن يدركه سواهم ، ولم يكن فيه ما يغريهم بالإقبال عليه لأنهم يومذاك لم يكونوا قد استعدوا له ، ولا تهيأوا لقبوله .

وإذا كان القوم قد تأثروا بهذه المعانى الإسلامية ، وظهر هذا الأثر فى كلامهم صدرَ الإسلام ، والقوم يومئذ حديثو عهد به ، فلا جرم كان من الحتم أن يزداد هذا الأثر وضوحًا كلما لاحت لهم أسراره وفقهوا أحكامه ؛ ولا عجب أن يصوغ القصاص قصصهم والكتاب كتبهم ، والخطباء خطبهم على هذا النهج الجديد ، فيها الجنة والنار ، والثواب والعقاب ، وفيها الاعتزاز بالإسلام بدل الاعتزاز بالقبيلة :

أبى الإسلام لا أب لى سواه إذا افتخروا بقيس أو تميم

وفيها الحرص على النسب الإسلامىّ :

يا قيس ، لا تجب النداء ؛ فما لنا نسب نجيب به سوى الأنصار
نسب تخيَّره الإله لقومنـــا أثقل به نسبًا على الكفار !

بل لا عجب أن نرى بعض الطوائف فى الإسلام يردون ويصدرون عن المعانى التى جاء بها القرآن ؛ وهذا أدب الخوارج فى خطبهم وكتبهم يفيض خوفًا من الله ، واعتزازاً بالشهادة فى سبيل الدفاع عن دينه ؛ وكالخوارج غيرهم من شيعة وغير شيعة ومن منعه زهده وأدّاه اجتهاده أن يكون أمة بنفسه — تأثر أدبهم واصطبغت نفوسهم بأدب القرآن ، وظهر أثر هذا حتى فى كلامهم الذى لا يقصدون فيه إلى التفاصح ؛ نستثنى من

ذلك من شايع بنى أميَّة ، فقد كانت المعانى الجاهلية على أدبهم أغلب وبها أحرى بعد الذى أثاروا من فتن وأحيوا من عصبيات .

وكما أثر القرآن فى معانى اللغة من حيث ما جاء به من اشتراع جديد، كان له أثر فى خلق معانٍ جديدة — تناول معانيهم التى كانوا يتعاورونها بينهم فتصرف فيها وهذبها ، وزاد فيها أو نقص منها ، ووضعها مواضع تناسبها ، بحيث أصبحت تلائم كل الأذواق فى كل العصور ، بعد أن كان فيها ما لا يسمح لها بالبقاء إلا فى عصر جاهلى له ذوق خاص .

تلك إشارة مجملة إلى أثر القرآن الكريم فى معانى اللغة من حيث ما فيه من اشتراع جديد ، ومن حيث ما اختص به من رعاية لمقتضيات الأحوال ، ووضع كل شىء فى موضعه اللائق به .

وثمة جهة أخرى غير هذه ، تأثرت بها المعانى اللغوية ، وهى خروج اللغة إلى الممالك المتحضرة تنتزع منها معانى وأخيلة هى وليدة الحضارة وربيبة المدنية ، بل هى تراث أمم مختلفة ، ونتاج ثقافات متعددة ؛ وقد مكنها من ذلك وأمدَّها به أمران : أحدهما ، تحضر العرب ، وثانيهما تعرب العجم ، ويحسن أن نقول كلمة مجملة عن كل .

تحضر العرب

ليست بنا حاجة إلى وصف حياة العربى الجاهلى ، ولا إلى القول فى شظف عيشه وسوء حاله . وحسبنا أن نعلم أنه كان إذا اشتدت به الفاقة وألح عليه الجوع ، أكل الضب واليربوع ، وحمله ذلك على النهب والسلب ، معرضًا حياته للموت ، فإن أصاب من ذلك ما يمكنه من عسّ لبن يرويه ، أو قبضة تمر تشبعه ، قنع وأنشد :

وحسبك من غنًى شبع وريّ !

فلما جاء الإسلام ، اتسعت أمامه سبل العيش وذللت له أسباب الترف ، ووقع ما توقعه الخليفة الأعظم[1] ، رضوان الله عليه : « والله لتتخذن نضائد الديباج ، وستور الحرير . ولتألمنّ النومَ على الصوف الأذربيّ كما يألم أحدكم النوم على حسك السعدان » ! فقد ، والله ، اتخذوا نضائد الديباج ، وستور الحرير ، وأترفوا حتى ما يقوى أحدهم على مواجهة الشمس فى غير الأصائل والبكور ، ولهوا حتى ملّهم اللهو وضاقت بهم مذاهبه . وطربوا كثيراً ، وشربوا كثيراً ، وتمتعوا من هذه الدنيا بما كان يتأبى عليهم فى هواجس نفوسهم وأحاديث أوهامهم ، لو أرادوه وحاولوا أن يتصوّروه !

ومن الإنصاف للحق أن نقول : إن هذا الحكم لم يشملهم جميعًا ولا فى كل العصور التى مرت بها الحياة الإسلامية ، فهم فى صدر

(١) أبو بكر الصديق .

الإسلام والقوم يومئذ حديثو عهد ببداوة . جادُّون فى تأييد الإسلام وإبلاغه إلى الناس ، فليست لهم فترة سكون واستقرار تدفعهم إلى اللهو واللعب ، والدين غضّ فى نفوسهم لا تزال تعاليمه مصرِّفة لهم ومهيمنة عليهم ؛ والخلفاء مُثُل كاملة للإسلام الكامل والعربية المهذبة ، واللذائذ الروحية بانتصارهم على أكثر الأمم جاهًا وأعظمها سلطانًا ، تحتل من نفوسهم المكان الأول ؛ كل ذلك لا يحتمل منهم ولا يبيح لهم شيئًا من لهو أو لعب ؛ لذلك تأثرت اللغة فى معانيها بهذه الحياة الجادة الحازمة تأثراً تمثل فى مرآة الرجز والشعر ، والخطب والرسائل التى كانت تصدر عنهم حاكمين ومحكومين ، يشع فيها كلها روح الإسلام ، ويهيمن عليها جميعها الجد والحزم والوقار .

فلما خلصت الخلافة لمعاوية ، رحمه الله ! أخذت حياة العرب تدب فى مجموعها إلى النعيم الساخر ، وتخضع للغرائز الطليقة ، وكان ذلك نتيجة للسياسة الماكرة التى استحدثها زعيم بنى أمية .

وقد أخذت تلك الحياة صوراً مختلفة وأشكالاً منوعة ، ففى العراق حياة متحضرة ناعمة ، يحياها الشيعة الراضون على مضض بملك معاوية ؛ وفى الشام والجزيرة ومصر ، حياة متحضرة كذلك يحياها شيعة بنى أمية المدافعون عن هذا الملك . وفى كلتا الحياتين ظل للاختلاط بالأعاجم من طريق التسرى والتزاوج . وفى الحجاز لونان من الحياة مختلفان غاية الاختلاف فأصحاب رسول الله عليه الصلاة والسلام ، وكثير

من بنى هاشم ، وأبناء الخلفاء الذين خلف لهم آباؤهم ثروة ، والذين غمرهم معاوية بالأعطيات يترضاهم ؛ كانوا يحيون حياة مؤمنة فى حدود الإسلام . وبعض الشبان ، الهاشميين وغير الهاشميين ، آثروا لونًا آخر من الحياة ، فيه اللذائذ المباحة وغير المباحة ، وقد انضم إليهم بطائن من الموالى والقيان ، يعزفون ويغنون ، وينشدهم خلعاء الشعراء ما يروى لذائذهم ويصور حياتهم. وفى البادية حياة جاهلية ، من حيث بقاء أهلها على رعاية الإبل والغنم وعلى فخرهم وهجائهم ، وإسلامية من حيث خضوعهم للسلطان ، وأمنهم إغارة بعضهم على بعض ، وانقيادهم إلى حد ما لأحكام الإسلام .

وقد كان الأدب صورة دقيقة لأنواع هذه الحياة جميعًا وكان حظه من الدقة والسمو فى الخيال وتنوع صوره ، بمقدار حظ البيئة التى نبت فيها . وهل يمكن أن العرب لا يتأثرون بمشاهد الحضارة فيظلون على ما كانوا عليه فى جاهليتهم ، من حيث معانيهم وأخيلتهم ؟ ونحن نرى أن هذه الحياة هى التى أوحت إليهم بهذا الشعر السياسىّ وهذا الشعر القصصىّ الغزلى العفيف أو المستهتر ، فرأينا فى هذا كله مسحة لم نرها للجاهليين أو المخضرمين !

غير أن المعانى التى أودعها الأدباء شعرهم ونثرهم ، والأخيلة التى ظفروا بها فى هذا العصر الذى لم يمتزج فيه العرب بالعجم ، لم تخرج بالأدب العربى عن نهجه ، ولم تجعله أدبًا عربيًّا فى ألفاظه ، ومزيجًا من عربى وغير عربى فى معانيه وأخيلته .

فلما آذنت شمس الدولة الأموية بالأفول ، وأقام السفاح على أنقاضها دولة فارسية فى نظمها وحياتها الاجتماعية ... ووضع صقر قريش بالأندلس أساس دولة أموية عربية ، أخذ الأدب صورتين بينهما الكثير من التخالف والتباعد .

فى المغرب أدب عربى صريح ، ومعان عربية فطرية وأخيلة معتدلة . لم تستمد جدتها وطرافتها إلا من العرب تحضروا فى إقليم يسميه الناس : جنة الدنيا ومدرسة الشعر !

فأما فى المشرق فقد تحضر العرب واضطروا إلى الاقتراب من الموالى والامتزاج بهم ، والاندراج فى غمار العامة ، ولم يعد من الممكن أن يقال فى الأدب الذى يصدر عنهم إنه أدب عربى كسته الحضارة روعة وأكسبته دقة ، كما كان يقال ذلك فى دولة بنى أمية ، وكما يقال ذلك فى عرب الأندلس ؛ فإن القوم يومئذ كانوا يهيمنون على شئون الدولة ، فالخليفة عربى ومقاليد الحكم بيد العرب . وأمراء الجيوش من العرب ، والجنود عرب وليس للموالى شىء من ذلك . بل ليس للموالى أن يقيسوا أنفسهم بهم وإن كان الإسلام قد سوى بينهم ؛ لذلك كان من الممكن هناك أن ينسب الأثر للعرب تحضروا ثم اغترفوا معانيهم وأخيلتهم من ينابيع الحضارة — فأما فى دولة بنى العباس فليس لهم فى ذلك أثر لأنهم تحضروا ؛ بل لأنهم انتقلوا من العربية إلى الفارسية ، أو بتعبير أدق ، لأنهم تمازجوا ، فكان أدبهم لا هو بالعربى الخالص ، ولا هو بالأعجمى الصميم !

تعرب العجم

أسلفنا أن القرآن الكريم هو الذى دفع بالأمم غير العربية إلى تعلم اللغة ومعالجة آدابها ، فخفوا إليها وأقبلوا عليها بدافع الدين أو الدنيا .

ومن المسلم به عند الباحثين أن لكل أمة أدبًا هو صورة حياتها . فللفرس أدب ، وللهند أدب ، ولليونان أدب ؛ وكل هذا يختلف بعضه عن بعض لأنه يصور حياة يختلف بعضها عن بعض — فهل ذلك الفارسى الذى تعلم اللغة العربية وكان كاتبًا أو شاعراً، يستطيع أن لا يودع كتابته أو شعره ، معانى فارسية وأخيلة فارسية عرفها فى لغته أو ورثها عن أبويه ؟

يقول المتأدبون : إن الكتابة الفنية ظهرت أول ما ظهرت على يد « سالم » مولى هشام ، وأنه هو الذى أخضعها لنظم خاصة ونقل إليها من اليونانية شيئًا من ذلك ، حتى إذا جاء عبد الحميد الذى عرف بعد بعبد الحميد الكاتب ، عرف اليونانية من سالم ، والفارسية من عبد الله بن المقفع ، فكان لذلك أثر بالغ ، بلغ بها الذروة التى استحق بها أن يكون « شيخ الكتّاب » .

فهل كان أثر الفارسية واليونانية فى الكتابة الفنية مقصوراً على أمور شكلية لا يتعداها إلى أخيلتها ومعانيها ؟

لا شك أن الشعراء والكتاب الذين نشأوا نشأة فارسية أو نظروا فى الآداب الفارسية، قد أخذوا معانى فارسية، وأودعوها الشعر العربى والكتابة العربية ، وإن كان من الصعب تعيين هذه المعانى وتحديدها . وخاصة بعد أن تحضر العرب وأظلتهم مع الفرس وغير الفرس حياة واحدة ، فى جدها وهزلها . ووقارها واستهتارها .

يقول الأستاذ أحمد أمين ، بعد أن ذكر ألفاظاً أخذها العرب من اللغة الفارسية :

« ولا بد أن يكونوا قد أخذوا منهم تراكيب للجمل جديدة ، ومعانى جديدة وخيالاً جديداً . ولكن من العسير تعيين ما أخذوه من هذا النوع بالدقة لأن المعانى والخيال وما إليهما ، مما يسرق وقل أن يضبط ، ولم تسجل أمة معانيها وخيالاتها كما تسجل ألفاظها » .

وهو بهذا يقول مسلَّماً ومقبولاً ، ولكنه يقول فى موضع آخر : « . . . ولكن مع فقد الأدب الفارسى . فإننا نلمح فى شعر هؤلاء الذين سمينا (ويريد بهؤلاء ، زياداً الأعجم وإسماعيل ومحمد وإبراهيم أبناء يسار) معانىَ جديدة ونزعات جديدة نذكر لك أمثلة منها ، فقد سجعت حمامة بجانب زياد فقال :

تغنَّىْ ، أنتِ فى ذمى وعهدى ... وذمة والدى إن لم تطارى
وبيتك أصلحيه ولا تخافى ... على صفر مزغبة صغار
فإنك كلما غنيت صوتًا ... ذكرت أحبتى وذكرت دارى

فإمَّا يقتلوك طلبت ثأرا له نبأ . لأنك فى جوارى »

ثم يقول الأستاذ بعد ذلك :

« وذكروا أن حبيب بن المهلَّب لما سمع هذا الشعر قتل حمامته ، فاستعدى زياد عليه المهلب ، فحكم له بدية جارته » .

ثم يقول ، وينتهى إلى النتيجة التى أرادها :

« أفلست ترى معى أن هذا الشعور على هذا النحو ، جديد لم أعرفه للعرب قبل ، ولعل عليه مسحة مانوية من حماية الحيوان ؟ » .

ويعود فيشعر بالقلق فيعقب على هذا بقوله :

« لست أعنى الشعور بحماية الحيوان لأنه فى جواره . إذ يظهر أن هذا كان عند العرب فى الجاهلية ، ولكن أعنى تجسيم هذا المعنى حتى يستعدى الوالى بطلب الدية » .

والواقع أن الحكم بأن هذا المعنى جديد ، ليس فيه مقنع لأنى أستطيع أن أرى مثل هذه الحادثة فى الجاهلية ، فقد ذكروا أن جماعة كانوا يطاردون ضبعًا ، فاحتمت منهم بخباء رجل من العرب ، فسلَّ سيفه وخرج يقول : أمَّا فى جوارى فلا !

وما أشك فى أن هذا الرجل ، كان سيقتلهم لو قتلوها فى جواره ؛ ولعل هذا يقوم مقام استعداء الوالى ، حيث لا والى للقوم إذ ذاك .

وإنى لم أذكر ذلك إلا لأخرج منه إلى ما ادعيت من أن الحكم على معنى بأنه عينه للفرس أو لليونان مدعاة إلى البحث المضنى والاحتياط

الشديد مع عدم الاقتناع به ، وإمكان المنازعة فيه ؛ ولم أرد أن هذا الذى ذكره الأستاذ . خطأ . فقد يكون صحيحًا ! ومن الميسور التسليم به ، والتدليل عليه . والأحكام على خواص المعانى من نحو أنها دقيقة وبعيدة ومرتبة ومراعًى فيها التناسب والتوافق . والأخيلة وعمقها أو سطحيتها وضعفها أو قوتها . وما إلى ذلك . مما يخضع لألوان الحياة المختلفة وصور العيش المتباينة . فأما نفس المعانى وحقائقها فإنها تتعلق بأصول الفطر ووجود الأفكار والعقول . وصعب أو محال الحكم على أمة بقضها وقضيضها مع اختلاف أفرادها طبيعيًّا وتعليميًّا ، بأنها لم تقل هذا المعنى بعينه !

هذا ما أفهمه ، ولعله صواب ، وقد يكون خطأ ! !

وإذن . فما أثر تعرب العجم فى اللغة ؟

أمَّا فى العلوم والمعارف وما نشأ عن ذلك من معان علمية . فحسبنا أن نستمع إلى الإمام الجليل « ابن خلدون » يحدثنا أن أكثر حَمَلَة العلم فى الإسلام . العجم . لا فرق فى ذلك بين علوم عقلية أو لسانية أو شرعية ؛ فهذه المعانى . الطبيَّة والفلكية والفلسفية . وحياطتها بالحجة وظهور ذلك حتى فى الشعر . من أثر تعرب الأعاجم !

فأما الأدب . فقد أحدثوا فيه نوعًا لم يكن يعرفه العرب . وهو الكتابة الفنية . وقد أسلفنا أنه لا بد أن يكونوا قد نقلوا إليها معانى أعجمية أو أعطوا المعانى العربية بعض خواص المعانى الأعجميَّة . — ولم يقصر

أثرهم فى الشعر عن أثرهم فى غيره .

وهذا الغلو فى الخيال ، والإبعاد فى التقاط المعانى ، وإن كان للحضارة فيه أثر عظيم لا فرق فى ذلك بين فارسىّ وعربى ؛ فإنه لا يبعد أن يكون للخيال الفارسى الموروث أثر فيه .

ولست أزعم أن العقل الفارسى — لأنه عقل فارسى — فاحص دقيق ، ولا أن الخيال الفارسى ، لأنه كذلك ، خيال غال يخترع ما لا يستطيع غيره اختراعه ويصور ما لا يجيد سواه تصويره . . .

فالعرب كالفرس فى أصل الفطرة . إلا أن الفرس أمة ذات حضارة قديمة وملك عتيد ، فيها علم يحتاج إلى إعمال الفكر ورياضته على التأمل والاستقصاء فى التأمل ؛ وفيها حكام طغاة لهم أساليب عنيفة فى الحكم ، ترغم الشعب على رهبتهم والتزلف إليهم ثم فيها حياة ناعمة ينمو فيها الجسم وتسكن إليها النفس بما تشتمل عليه من طعام وشراب وغناء ، لذلك كله تصطبغ نفوس الأمة بما تحسه من ألم وأمل ، وترقى أفكارها ويغلو خيالها وتنتقل هذه الخصائص إلى ذراريها بطريق الوراثة ، والوراثة أمر مقرر معروف !

فإذا كان للفرس فى العصر العباسى ميزة على العرب مع أن الحياة التى تظلهم واحدة ، فذلك لما فيهم مما ورثوه عن ملكهم القديم وحضارتهم العريقة من خيال رائع وفكر عميق .

هذا ، وقد ذكر الأدباء معانى ، قالوا إنها جديدة ، وقد نسبوا

أكثرها للفرس — والأدب العربى تأثر أكثر ما تأثر بالمعانى الفارسية ، والخيال الفارسى — فمن ذلك قول بشار الفارسى :

يا قوم أذنى لبعض الحى عاشقة والأذن تعشق قبل العين أحيانا
قالوا بمن لا ترى تهذى فقلت لهم : الأذن كالعين توفى القلب ما كانا

ومن الخيال البديع ، قول ابن الرومى يصف أحدب :

قصرت أخادعه وغاص قذاله فكأنه متربِّص أن يُصفعا
وكأنما صُفِعت قفاهُ مرة وأحسَّ ثانيةً لها فتجمَّعا

وهذا باب واسع لا سبيل إلى حصره . ولا صعوبة فى الوصول إليه ، فهو فى المدح والرثاء والوصف ، وكل أغراض الشعر ، يحدث عن نفسه ويتعرض لرائده!

ولست أعنى أن تلك المعانى الجديدة ، وهذه الأخيلة البديعة الغالية أو المعتدلة ، كانت من صنع الشعراء الفرس وحدهم ، فقد تجد لمثل أبى تمام والبحترى مثلَ ذلك ؛ لأن استقرار الحياة فى ظل تلك الحضارة الرائعة ، وترجمة العلوم والآداب الأجنبية وتجبر الخلفاء وظلمهم الذى تمثل فى إنشاء ديوان المصادرات ، كل ذلك وأسباب كثيرة غيره ، جعل العقول تنضج والمعارف تتسع والملاحظة تقوى فلم يعد ثمة فرق بين عربى وغير عربى فى تدقيق المعانى والإبداع فى الأخيلة .

وإجمال هذا البحث أن اللغة من حيث أخيلتها ومعانيها تأثرت بالقرآن بما فيه من معان جديدة جاء بها فى اشتراعه الجديد ، أو قديمة سلك بها طريقًا أجمل وأروع ؛ ثم بما دفعها إليه من حياة متحضرة

تنتزع من رؤوس العرب وغير العرب معانى هى وليدة ألوان من الحياة ذات نظم خاصة فى العلوم والمعارف والعادات والتقاليد . والسياسة والاجتماع .

وتكاد تنحصر مظاهر هذا التأثر فيما يأتى :

أولا : حسن نظامها ، وظهر التأنق فيها . وروعى الوفاق بينها ، إذ كان الفكر قد ارتقى وثقفه النظر الصحيح فى أمور الدين والملك ، كما ثقفه النظر فى أديان وعقائد وآداب الأمم الأخرى ؛ فبرزت دقيقة متماسكة آخذاً بعضها برقاب بعض .

ثانيًا : اتسعت مادتها ؛ إذ أنها وليدة المشاهدات والمعقولات ، وعلى قدر اتساعها أو ضيقها تتسع المعانى أو تضيق ، وقد رأينا أن محيط اللغة بعد الإسلام قد اتسع من جميع جهاته اتساعًا ماديًا ومعنويًا .

ثالثًا : سما الخيال ودق ، وتنوعت صوره تبعًا لتنوع المرئيات الجميلة التى انتزع منها ، وحدث منه ما يسمى الخيال الاختراعى وكثر ، وقد رأينا أن العرب كان لا يعدو تخيلهم استحضار صور ما يأخذه حسهم ، إلا فى القليل النادر .

رابعًا : ظهر فيها الغلو والإغراق والتهويل ، واتسع ذلك حتى شمل الخطب الدينية على منابر المساجد ، وفى حلقات الوعظ والإرشاد ، فأما فى الشعر فقد وصل ذلك إلى حد لا يقبله العقل ولا يسلم به حتى عاد ضربًا من الهوس ونوعًا من المحال .

خامسًا : كثرت من حولها الحجج تكتنفها . والبراهين تحيط بها ، وإذا كان ذلك قد ظهر فى الشعر ، فهو فى المعانى العلمية والفلسفية أظهر .